3. العمارة الفاطمية:

كانت بداية ظهور الفاطميين في بلاد المغرب في كل من تونس وطرابلس الغرب قبل انتقالهم إلى مصر ورغم ذلك أصاب الكثير من مخلفاتهم المعمارية الدمار والاندثار، ويعاز ذلك إلى بعض الأسباب منها ما هو سياسي كغزو قبائل بني هلال وبني سليم لشمال إفريقيا وما نتج عنه من تخريب للعمارة، إلى جانب الغزو الإسباني لطرابلس وما نتج عنه من تخريب سنة 1510م.

أجريت الكثير من الحفريات بمواقع أثرية عدة كشفت أساسات مساجد تلك الحقبة على وجه الخصوص، حيث أمكن ذلك من تحديد نمط مساجد تلك الحقبة، وهي مساجد تتكون من صحن أوسط تحيط به أربع ظلات أكبرها ظلة القبلة، بالإضافة إلى جانب استعمال البلاط الأوسط الأكثر اتساعا عن بقية البلاطات، ومن خلال هذه الاكتشافات وكتابات الرحالة نلاحظ وجود المآذن ذات المقطع المثمن كما هو الحال في جامع مدينة سلطان ومسجد مدينة أجدابيا، وهذا على الرغم من أن مساجد الفاطميين في المهدية بتونس وعمائرهم بالقاهرة فيما بعد تميزت بمقطع مربع كما هو الحال في جامع الحاكم.

*** مسجد سلطان:**

اكتشفت أساسات المسجد سنة 1963م من طرف بعثة مصلحة الآثار الليبية في مدينة سلطان بالجزء الشرقي من ليبيا، والمسجد عبارة عن مساحة ذات مخطط مستطيل الشكل بقياسات 31مx41م يتوسطها صحن مكشوف مقاساته 19مx21م يتوسطه صهريج لخز المياه، ويحيط بالصحن أربع ظلات أكبرها ظلة القبلة مقسمة بواسطة بائكة من العقود إلى أروقة موازية لجدار القبلة، يتوسطها بلاطا أوسطا أكثر اتساعا عن بقية البلاطات، فتحت أبواب بالجدران الثلاثة فيما عدا جدار القبلة، ويظهر أن الباب الموجود بالجدار الشمالي-الغربي ويتوسطه قد كان بارزا عن سمت الجدار، في حين تحتل المئذنة الركن الشمالي-الغربي، ومن خلال بقايا المئذنة يظهر أنها كانت ذات مقطع مثمن الشكل، وهي مشابهة في شكلها لمئذنة جامع أجدابيا الذي بناه أبو القاسم بن عبيد الله المتوفي سنة 334هـ/945م حسبما ذكر البكري في معجم البلدان والذي أكده العياشي في رحلته، حيث ذكر أنه توجد بموضع المسجد كتابة تشير إلى أنه بني سنة ثلاثمائة، وفي 1971م قامت مصلحة الآثار بليبيا بالتعاون مع جمعية الآثار الليبية بجمعية لندن بإجراء حفرية بالموقع في منطقة مقبرة سيدي حسن، ويتفق ما تم الكشف عنه من أساسات مع تخطيط جامع مدينة سلطان والذي يرجع إلى نفس الفترة.

مما يؤيد نسب هذا المسجد للعهد الفاطمي العثور على مجموعة من القطع الحجرية التي تحمل نصوص كتابية منفذة بالخط الكوفي الفاطمي الطراز في أشرطة ضيقة، كما عثر على قطع من زخارف جصية مماثلة للزخارف الجصية من الطراز الفاطمي.

*** مسجد الناقة بطرابلس:**

الصورة رقم 01: جامع الناقة من الخارج

أسسه المعز لدين الله الفاطمي وهو في طريقه إلى مصر سنة 362هـ/972م بينما هناك مصادر أخرى تذكر أن بني عبيد قد بنوه وأن الخليفة المعز قد زاد فيه وهو في طريقه إلى القاهرة، ونستنتج مما أورده التجاني الذي زار طرابلس سنة 706-708هـ/1306-1308م أن المسجد كان موجودا عند زيارته للمسجد، ووصفه بالجامع الأعظم وذكر أنه جامع متسع على أعمدة وسقفه حديث التجديد، وبه منار مرتفع متسع قائم عن الأرض على أعمدة مستديرة فلما تم نصفه السدس، وكان بناؤه سنة 299هـ/911م على يد خليل بن إسحاق.

إلا أنه لم يبق بالمسجد آثار ترجع للعصر الفاطمي نظرا لما تعرض له من أعمال تخريب وهدم، ولا تتفق عمارته مع عمارته في العصر الفاطمي حيث أن بيت الصلاة به مقسم إلى بلاطات وأساكيب غير منتظمة في اتساعها، ولا في شكل عقودها المتنوعة، وكذلك في أشكال الأعمدة وتيجانها، كما أن تخطيطه الحالي مخالف لتخطيط المساجد الفاطمية إذ أنه مؤلف من بيت صلاة مغلق تتخلله فتحات أبوا ونوافذ يتقدمه رواق يطل على الصحن، كما أن جدار القبلة ليس محوريا مع الصحن، ولكنه على امتداد الظلة الجنوبية الشرقية، وإن كان المسجد له صومعة مربعة على طراز المآذن الفاطمية، وطراز مآذن بلاد المغرب عموما إلا أنها مضافة ضمن تجديدات صفرداي سنة 1119هـ/1610م.

*** الوصف المعماري:**

الصورة رقم 02: بيت الصلاة - جامع الناقة

ينطوي المبنى على تنظيم شديد الخصوصية إذ تدعم قاعة الصلاة في شرقها مئذنة مربعة وتمتد في غربها بفناء ذي أروقة تستند على جدار القبلة، إلى جانب خصوصية أخرى لهذا الجامع تتمثل في طابعه المركب، المصنوع من استعارات من التقاليد الليبية ـ المغربية.

يضم بيت الصلاة غابة من الأعمدة قوامها 36 عمودا، وهي أعمدة أعيد توظيفها من بقايا آثار المدينة القديمة أويا التي سبقت طرابلس، وهي أعمدة من الغرانيت ومن المرمر، الأملس أو المخدد، ذات نسب مختلفة، تعلوها تيجان من الطراز الدوري أو ذات أوراق الأكنتس، على أن التكوين الذي ترسمه يتبع بالمقابل تماماً النموذج الكلاسيكي للمساجد الليبية، كل مجموعة من أربعة أعمدة تؤلف مقياس تناسب تعلوه أقواس حادّة نسبياً تحمل واحدة من القبب 42 الصغيرة التي تغطي بيت الصلاة، أما الجناح المركزي الذي يطلّ على المحراب، فهو يمتد باتساع انطلاقاً من جدار القبلة.

يقوم الفناء بفعل وضعه بوظيفة مسجد الصيف حسب تقليد راسخ في ليبيا، فجدار القبلة يتمتع على هذا النحو بمحراب كان مسبوقاً برواق مزدوج يؤلف قاعة الصلاة، لكنه دمر خلال غارات الحرب العالمية الثانية، أما المئذنة المربعة التي تعلو عشرة أمتار فتتوجها سلسلة من اثنتي عشرة شرافة تعلوها أغطية بشكل سنبلة.

*** جامع المهدية:**

نزل عبيد الله المهدي بقصر الصحن بمدينة رقادة التي كانت عاصمة لبني الأغلب وما أن تم تأسيس مدينة المهدية حتى انتقل إليها، وهي مدينة على شبه جزيرة تقع بين صفاقس في الجنوب وسوسة في الشمال وسميت بالمهدية نسبة إليه، وكان ذلك سنة 303هـ/915م باتفاق جل المؤرخين فيما عدا ابن عذارى الذي يذكر سنة 304هـ/916م، وقام المهدي بتأسيس مسجد جامع وسط عاصمته الجديدة في الفترة الممتدة بين 303-305هـ/915-917م.

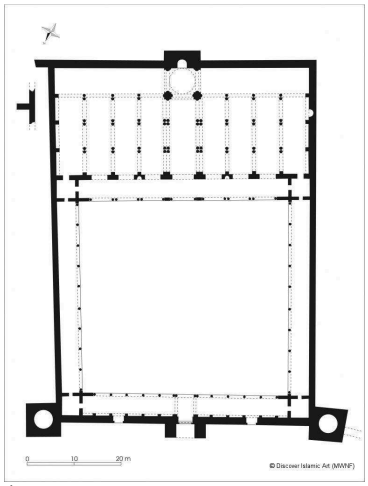
المخطط رقم 01: مخطط جامع المهدية

*** الوصف المعماري:**

يشغل المسجد مساحة ذات تخطيط مستطيل الشكل أبعادها 60م82xم، ويؤدي إليه مدخل تذكاري عبارة عن برجين بارزين عن سمت الجدار في الواجهة الشمالية الغربية، وأبعاد كل برج منهما 8.50م3xم أما ارتفاعها 9م، ويتخلل واجهة كل منهما طابقَين من الكُوّات ذات الأقواس المتجاوزة تفصل بينها زخارف ناتئة، ونلاحظ أن الكُوّات السفلى مسطحة بينما اتخذت شكلاً نصف اسطواني في الأعلى، واستعمال الكُوّات كعناصر زخرفية اقتُبس من العمارة الأغلبية والعباسية كما هو الحال في باب بغداد في الرقة.

الصورة رقم 03: واجهة جامع المهدية

نجد بين البرجين مدخل معقود بعقد على شكل حدوة فرس بعرض 4م يرتكز على عضاضتين (Piédroits) ، ويؤدي الباب إلى دركاه مسقوفة بقبو طولي ينتهي بفتحة باب معقودة بعقد مستقيم، يعلوه عقد قوسي عاتق، بينهما نفيس ويؤدي الباب إلى الصحن ومنه إلى بيت الصلاة.

استخدام العقد المستقيم يعلوه عقد عاتق بينهما نفيس ظهر فيما بعد بالعمارة الفاطمية بالقاهرة، التي أنشئت في عصر المستنصر على أيدي "بدر الدين الجمالي"، وهو من التأثيرات المغربية على العمارة الفاطمية بالقاهرة، ويحيط بالمدخل دخلتان معقودتان بعقود حدوة الفرس، يعلوهما دخلتان معقودتان بعقود نصف دائرية.

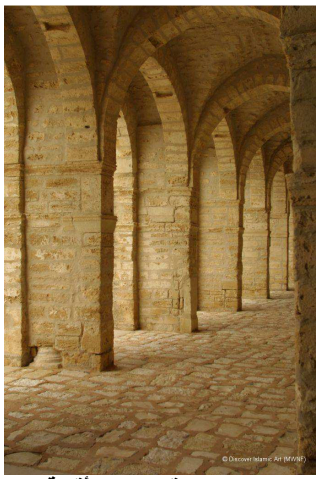
الصورة رقم 04: الأقبية المتقاطعة بأروقة الجامع

تبرز في ركني الواجهة الشمالية الغربية قاعدتي الصومعتين الأصليتين للجامع، ويبلغ بروز كل منهما 7.80م، وتصميم المئذنتين بهذا الموضع بالجدار الشمالي-الغربي نجده أيضا في جامع الحاكم بأمر الله بالقاهرة، ويرجع إلى سنة 380-403هـ/990-1010م، ويؤدي المدخل إلى ظلة مستحدثة مكونة من 13 عقدا من نوع عقود حدوة الفرس موازية لجدار القبلة، ومغطاة بأقبية متقاطعة.

يحتل الصحن مساحة ذات شكل مستطيل أبعادها (35x49)م^2، في الناحية الغربية منه ظلة حديثة مكونة من 09 عقود حدوة الفرس، محمولة على دعامات ويغطيها أقبية متقاطعة، وفي الناحية الجنوبية-الشرقية ظلة القبلة تتقدمها سقيفة مستحدثة، مكونة من 15 عقدا محمولة على أعمدة، وتؤدي هذه السقيفة إلى ظلة القبلة، وهي عبارة عن مساحة مستطيلة مساحتها (23x30)م^2، وتتكون من 09 بلاطات عمودية على جدار القبلة، تفصل بينها 08 بائكات لها عقود حدوة الفرس، يبلغ عددها في واحدة منها 07 عقود محمولة على 06 أعمدة.

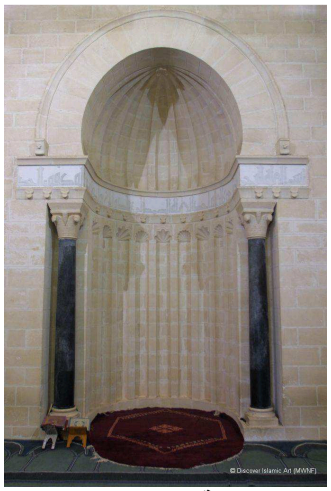

الصورة رقم 05: محراب جامع المهدية

يتوسط جدار القبلة محراب عبارة عن حنية معقودة بعقد حدوة فرس، عليه كتابة تشير إلى تاريخ 1334هـ/1915م ويوجد خلفه وعلى مسافة 01م المحراب القديم الذي يرى من ثقوب في المحراب الحديث، وهو بذلك مشابه لما هو عليه الحال في جامع عقبة بن نافع بالقيروان، والمحراب القديم عبارة عن حنية اتساعها 02م وعمقها 01م، يزخرف الجزء الأسفل منها قنوات قمتها مفصصة، يعلوها أربعة أسطر من الكتابة الكوفية، ويتوج حنية المحراب طاقية مزخرفة.

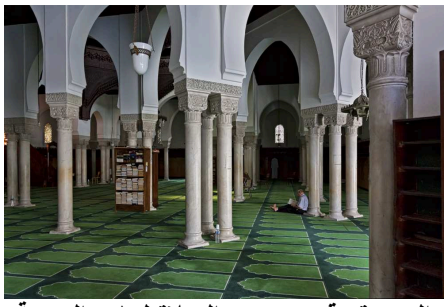
الصورة رقم 06: بيت الصلاة لجامع المهدية

وبناء على ذلك فإن بيت الصلاة مجددة حديثا، ويحيط ببيت الصلاة من الناحيتين الشرقية والغربية صحن مكشوف، وبذلك يكون للجامع 03 صحون مكشوفة، وإن صح نسبة هذه الصحون الثلاثة إلى فترة إنشاء الجامع فإنه بذلك يكون أقدم نموذج لتعدد الصحون في العمارة الإسلامية، سابقا بذلك مسجد تازا الموحدي، وبذلك تكون الأجزاء الأصلية الباقية بجامع ممثلة في الواجهة الرئيسية بمدخلها الرئيسي البارز وقاعدتي الصومعتين، وجدار القبلة القديم والمحراب.

يعد المدخل التذكاري لجامع المهدية أقدم مدخل تذكاري بالعمارة الإسلامية، فقد كانت قبل ذلك على نفس السمت مع جدار الواجهة، وقد انتقل هذا الطراز إلى جامع الحاكم بأمر الله بالقاهرة، ومنه إلى جامع الظاهر بيبرس 665-667هـ/1268-1270م، وهذا النوع من المداخل يعد ابتكار إسلامي صرف.